

فتح القدير

ثم لما من على المكلفين بإنزال الكتب وإرسال الرسول ذكر من كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل بلسان قومه فقال : 4 - { وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه } أي متلبسا بلسانهم متكلمًا بلغتهم لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول ولا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرًا طويلًا ومع ذلك فلا بد أن يصعب عليه فهم ذلك بعض صعوبة ولهذا علل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله { ليبين لهم } أي ليوضح لهم ما أمرهم \square به من الشريعة التي شرعها لهم ووحد اللسان لأن المراد بها اللغة وقد قيل في هذه الآية إشكال لأن النبي A أرسل إلى الناس جميعًا بل إلى الجن والإنس ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة وأجيب بأنه وإن كان A مرسلًا إلى الثقيلين كما مر لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخص به وأقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فاهما له كفهمهم إياه ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم وبينه رسول \square لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحًا لباب التنازع لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها وربما كان ذلك أيضًا مفضيا إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوي الباطلة التي يقع فيها المتعصبون وجملة { فيضل \square من يشاء ويهدي من يشاء } مستأنفة : أي يضل من يشاء وإضلاله ويهدي من يشاء هدايته قال الفراء : إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلا للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه فيكون معنى هذه الآية : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي ألفوها وفهموها ومع ذلك فإن المضل والهادي هو \square D والبيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله \square سبحانه واسطة وسببا وتقديم الإضلال عن الهداية لأنه متقدم عليها إذ هو إبقاء على الأصل والهداية إنشاء ما لم يكن { وهو العزيز } الذي لا يغالبه مغالب { الحكيم } الذي يجري أفعاله على مقتضى الحكمة